مناهج البحث **المحاضرة الثانية**

تطور مناهج البحث في دراسة الجماعة

ان دراسة الجماعة او السلوك الاجتماعي لا بد ان تكون وفق منهج علمي للبحث . ومعنى هذا ان تتضمن طريقة منظمة لتسجيل الملاحظات وان تخضع لضوابط تضمن لها الثبات والصدق.

لقد مرت مناهج دراسة الجماعة بمراحل فنجد اولا مرحلة الدراسة السيكولوجية للشعوب هذه التي تتمثل على خير وجه في الدراسات التي شاعت في نهاية القرن التاسع عشر ، والتي تشبه الى حد كبير ، بل وما تضمنته كتابات هيرودوت واعمال فوييل في سيكولوجية الشعوب ، وليس من شك في ان هذه الدراسات لا ترقى الى مستوى الدراسة الحقلية .

ونجد بعد ذلك مرحلة الدراسات السيكولوجية للأجناس ، او ما يسمى بالدراسات الأنثروبولوجيا الثقافية وقد انتشرت هذه الدراسات في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . اما المرحلة الحالية ، فترجع الى تقدم علم النفس واثره سواء من ناحية التكتيكات او من ناحية النظريات.

ان الدراسات التي كانت تقتصر في بدايتها على دراسة الشعوب البدائية اي دراسة (الانثروبولوجيا الثقافية) كانت تعتمد على المنهج التقليدي والتي بلغت ذروتها عند مالينوفسكي حيث يبدا بدراسة اطار القبيلة وبيئتها ثم يسجل المظاهر الدقيقة للحياة الواقعية ، وكذلك يحدد نمط السلوك الاجتماعي الشائع ، ويجمع الوثائق المتصلة بالعقائد والتقاليد ، ويهدف مالينوفسكي من دراسته الى الامساك بوجهة نظر الفرد تجاه عالمه وبالتالي فمنهجه يستند الى علم النفس الفهمي اي الى فهم الظاهرة الحياتية عن طريق التاويل وليس عن طريق التفسير بالقوانين ، ولكن منهج (مالينوفسكي) يعد مع ذلك منهجا كلاسيكيا اذ لا يستخدم الوسائط والادوات ما يمكن من ان ينفذ الى اعماق الظاهرة .

ثم تطورت المناهج الى دراسة السلوك الفردي بعد ان انكمشت الابحاث الحقلية . فبدا استخدام الاحلام واختبار (الرورشاخ) اي بقع الحبر، مما نلاحظه في دراسة ظاهرة التثقيف اي عملية احلال ثقافة حديثة محل ثقافة قائمة . هذا الى ما نجده من تركيز بعض الدراسات على جانب بعينه من جوانب السلوك وما يتبع ذلك من دراسة الشخصيات النمطية ممثلة للمجتمع موضوع الدرس او لشخصية ما من شخصياته في ظروف استثنائية .

لقد ساعدت ظروف النظريات منذ بداية القرن العشرين في تصحيح الكثير من النظريات التي كانت تجاه الجماعة والظواهر الاجتماعية وانهاء التعارض التقليدي ما بين الفرد والمجتمع وقد كان لهذه النظريات اعظم الاثر في تطور دراسات المجتمعات . فمثلا نظرية (الجشتالت) بتصورها الدينامي ومفاهيمها عن الوحدة الكلية وعن التفاعل بين الادوار وعن الاتزان والتكامل صححت الكثير من النظريات والى

جانب ذلك فقد ساهمت كل من نظرية التحليل النفسية والنظرية السلوكية في تطور الدراسات التي تخص الفرد والمجتمع.

وفيما يأتي تعرض مناهج البحث في دراسة الجماعة ،

1-المنهج التجريبي

يتبع علماء النفس الاجتماعي خلال تجاربهم الاجراءات الثابتة ، فيلاحظ الباحث ما يعتقد انها ثوابت نظامية او قانونية في مجال السلوك الذي يهتم به ويكون فرضية قد تشرح او تصف ملاحظاته ، ثم يجري تجارب في ظروف متحكم بها بعناية لاختبار فرضيته . ثم سيتأكد الباحث من ان مجموعات التجربة والمقارنة متطابقة من ناحية المتغيرات كالذكاء مثلا ويتأكد ايضا ان المجموعتين تستخدمان المواد نفسها وتعملان في البيئة نفسها وتحت اشراف الاشخاص انفسهم . الفرق الوحيد في الظروف بين المجموعتين هو الفرق بين معالجة المجموعة المقارنة (الضابطة) والمتعالجة التجريبية (المجموعة التجريبية) ثم يتم تحليل الاختلافات بين اداء المجموعتين قبل وبعد ويتم مقارنتها احصائيا .

في مثل هذا البحث يصبح الظرف المحفز (متغير مستقل) ويستغل من قبل الباحث وتصبح الاستجابة (متغير معتمد او تابع) . ان التغيرات في الاستجابة لمعنى اخر ، تعتمد او تسبب من قبل استغلال الباحث للمتغير المستقل . مثلا ، في تجربة حول استخدام الدعاية فان التنويع في طريقة تقديم الدعاية هو المتغير المستقل والدرجة التي يتقبل فيها الاشخاص الآراء الدعائية ستكون المتغير التابع . اذن فالاختلاف في طريقة تقديم الدعاية سيحدث تغيرات في اعتقادات او اتجاهات الافراد . ويمكننا لهذا الغرض ان نختار عينة من تلاميذ مدرسة ثانوية نفسها الى مجموعتين المجموعة الاولى (التجريبية) تعرض لنوع من الدعاية – فيلما سينمائيا او برنامجا اذاعيا او محاضرة تبرز في وضوح جوانب المشكلة المدروسة . وتترك المجموعة الثانوية (الضابطة) دون ان تتعرض لهذه الدعاية. ثم تجمع المجموعتين معا. ويطبق عليهما استفتاء . فاذا اظهرت المجموعة التجريبية تغيرات في الراي فان لدينا دليلا على تأثير الدعاية وهذا ما يسمى (بالمتغير التابع). ومثال اخر للدراسات التجريبية التي قام بها (هاوثورن) لكشف العلاقات بين ظروف العمل وملابساته وبين التعب والملل عند العمال . وبدا العمل بمحاولة تحديد العلاقة بين شدة الضوء في المصنع والانتاج فاختيرت لهذا الغرض مجموعتان من العمال وظلت الاضاءة على ماهي عليه في المجموعة الضابطة . وزيدت شدتها في المجموعة التجريبية . غير انه اتضح ان الانتاج قد زاد في المجموعتين الضابطة والتجريبية ، ثم انقصت شدة الاضاءة في المجموعة التجريبية ، فزاد انتاجها عما كان عليه ، ولقد اتضح للقائمين على التجربة ان هناك عاملا هاما يؤثر في الانتاج بغض النظر عن شدة الاضاءة .

وقد فتحت هذه الدراسة مجالا جديدا للبحث في اتجاهات العمال وثم ادت الى دراسة القيادة والاشراف وكشف الدراسة عن اهمية التنظيم الاجتماعي في الانتاج وظهرت اهمية مشكلات الاتصال . فقد وجد مثلا في تجربة اخرى ان الانتاج قد زاد نتيجة تغير في اتجاهات العاملات ازاء عملهن ونحو جماعة العمل . فكان يجلس مع العاملات في هذه التجربة ملاحظ يهتم بما يجري في التجربة ويطلب منهن النصيحة ويستمع الى شكاياتهن . وترتب على ذلك ان العاملات شعرن بأهميتهن . وانهم كجماعة يحاولن مساعدة الشركة على حل المشكلة وانهن يعرفن الهدف الذي يعملن على تحقيقه . وتوضح هذه التجربة ان الجماعة الاولية

وليس الفرد يجب ان تكون وحدة الملاحظة في التجارب العلمية . وان توفر الدوافع المناسبة اهم في الجماعة من الظروف البيئية الفيزيقية التي تحيط بها. فجماعة العمل ليست وظيفتها الانتاج فحسب ، بل لها وظيفة اجتماعية نفسية وهي اشباع حاجات اعضائها.

ان المنهج التجريبي في الدراسات النفسية يتطلب ان نعرف المشكلة ونحددها، وان نصلها بمبادئ واسس معروفة ، وتتناول مظاهر معينة من الظروف بينما تضبط اخرى وتبقيها ثابتة ، ونفترض الفروض . ونجمع البيانات ونحللها .ونحقق الفروض . وتتطلب الطريقة التجريبية ان نجري تجارب بطرق تسمح لنا بالتكرار والضبط . وتتطلب فهم المتغيرات المتضمنة . ويحاول الباحث ان يكشف المتغيرات العامة للمشكلة التي يدرسها ، ويجب عليه ان يختار المتغيرات التي يريد ان يضبطها وقد يوفق ويتوصل الى نتائج هامة ، وقد يخطئ ولا يصل الى اي نتائج ويرجع السبب الى الخطأ في تصميم التجربة ويصعب احيانا تحديد المتغير المستقل والمتغير التابع وقد يكون لدينا اكثر من متغير تابع ، وتزداد المشكلة تعقيدا حين توجد عوامل بسيطة . فمن الممكن ام تكون التجربة ناجحة اذا خطط لها مسبقا تخطيطا سليما .

ولنضرب مثلا لتجربة اخرى قام بها العالم (ليفين وليبيت وهوايت) لتبين اثر الاجواء الاجتماعية المختلفة على السلوك العدواني للأفراد ، فقد كونت ثلاثة مجموعات من الاطفال وعهد بها الى ثلاث اشخاص يتصف احدهم بالدكتاتورية والثاني بالديمقراطية والثالث بالفوضوية وكانت كل مجموعة تتكون من خمسة اولاد في سن العاشرة وكانوا يتفقون بقدر الامكان في الصفات العقلية والجسمية والمركز الاجتماعي والاقتصادي والمميزات الشخصية ، وكان ذلك الشخص في التجربة هو المتغير بينما تمثل الجماعات العوامل الثابتة حتى يمكن بالتالي المقارنة بينها ، وتكشف التجربة عن نزعة عدائية معتدلة في الجماعة الديمقراطية في حين تعظم في الجماعة الفوضوية ، وتتضاءل او تعظم في الجماعة الديكتاتورية .

2-المنهج الوصفي

يهدف هذا المنهج الى جمع اوصاف دقيقة علمية للظاهرة الاجتماعية في وضعها الراهن ، او الى دراسة العلاقات التي توجد بين الظواهر الاجتماعية .

ومن اهم طرق هذا المنهج هي الملاحظة العلمية وتعد هذه الطريقة المنظمة موردا خصبا للحصول على المعلومات والبيانات التي تتصل بالسلوك الاجتماعي.

ان الباحث في هذا المنهج يهتم بدراسة الوضع الحالي للظاهرة . ومن الضروري ان تتوافر للباحث اوصاف دقيقة عن الظاهرة قبل ان يتوصل الى حل المشكلة فيقوم الباحث بملاحظة الافراد والجماعات في المواقف الاجتماعية وبصورة مباشرة ومن ثم تدوينها ، ويتطلب ذلك اتباع وسائل دقيقة لتسجيل البيانات ومن امثلتها الاجهزة الصوتية ووسائل التصوير الفوتوغرافي والتسجيل الصوتي المرئي (الفيديوتيب) وكذلك الغرف الخاصة المزودة بحجاب الرؤية من جانب واحد .

ومن المفيد ان يتفاعل الباحث مع الجماعة المدروسة كان يعمل معهم او يسكن معهم وذلك لكسب ثقتهم به مما يسهل الامر عليه .

ويفضل ان يكون هناك اكثر من باحث لدراسة الظاهرة وذلك للإلمام بجميع جوانب الظاهرة ويشمل هذا المنهج على:-

1-الدراسات المسحية

2-دراسات العلاقات المتبادلة

3-الدراسات التطورية

1-الدراسات المسحية :-

وهي محاولات لجمع اوصاف مفصلة عن الظاهرة بقصد استخدام البيانات لتأييد الظروف او الممارسات الراهنة ، او لعمل تخطيطات اكثر ذكاء بغية الوصول الى تحسين الظروف والعمليات الاجتماعية مثلا. ويكون الهدف من ذلك كشف الوضع القائم وتحديد كفاءته عن طريق مقارنته بمستويات او معايير او محكمات ثم اختيارها او اعدادها وقد تكون هذه الدراسات على نطاق ضيق او واسع فقد تشمل دراسة جماعة صغيرة او وظيفة صغيرة او طبقة اجتماعية او مجتمع .

وعلى الباحث ان يختار عينة البحث بطرق احصائية ممثلة للمجتمع الاصلي ، ويستخدم الباحث الادوات كالاستبيانات او المقابلات لهدف التوصل الى اراء الافراد في موضوع ما .

2-دراسة العلاقات المتبادلة : وهناك ثلاثة انماط وهي :-

ا-دراسة الحالة :

وتمثل نوعا متعمقا من البحث عن العوامل التي تسهم في فردية وحدة اجتماعية ما ، شخصا كان او اسرة او جماعة او مؤسسة اجتماعية او مجتمعا محليا. فمن خلال استخدام عدد من ادوات البحث تجمع بيانات عن الوضع القائم للوحدة ، والخبرات الماضية والعلاقات مع البيئة وبعد النظر في العوامل والقوى التي تحدد سلوكها بعمق ومن ثم تحليل النتائج يستطيع الباحث ان يكون صورة شاملة متكاملة للوحدة كما تعمل في المجتمع . وما دام الفرد يعيش في نطاق اجتماعي فان دراسة الحالة يجب ان تتضمن معلومات عن الجماعة والتفاعل الاجتماعي والادوار والمعايير الاجتماعية ...الخ

ب-الدراسات المقارنة :

وهي تدرس اسباب الظاهرة الاجتماعية فالباحث هنا يبحث عن العلاقات واوجه الشبه والاختلاف بين المواقف العديدة ويصف العوامل التي تكمن وراء الظاهرة.

ج- الدراسات الارتباطية :

وتركز على استخدام الطرق الارتباطية التي تستهدف الى استكشاف حجم العلاقات بين البيانات ونوعها اي ، الى اي حد يرتبط متغيران ، او الى اي حد تتطابق متغيرات في عامل واحد مع متغيرات في عامل اخر ، وقد ترتبط المتغيرات مع بعضها البعض ارتباطا تاما او ارتباطا جزئيا موجبا او سالبا ، ذا دلالة احصائية او يرجع الى الصدفة .. وهكذا تفيد الطرق الاحصائية لحساب معاملات الارتباط ودلالتها في هذا المجال فائدة كبيرة وتخدم هذه الدراسات عددا من الاغراض وخاصة في دراسات التنبؤ والسبب والاثر .

3- الدراسات التطورية :

وتتناول الوضع القائم للظاهرات والعلاقات المتداخلة مع بعضها البعض وكذلك المتغيرات التي تحدث نتيجة لمرور الزمن ، فهي تصف المتغيرات في مجرى تطورها خلال مدة زمنية معينة وترصدها وتحللها . وان اوضح الدراسات التطورية دراسات النمو كما في دراسة النمو الاجتماعي مثلا ويتبع في ذلك احدى الطريقتين .